يدّعي بعض المؤرّخين أنّ محمّد عليّ باشا قام بإصلاحات هدفت إلى تطوير وبناء مصر الحديثة، وهناك من يدّعي أنّها كانت من أجل تحقيق طموحاته الذاتيّة

الطالب الأوّل– إياد:
موقف المؤرّخ المؤيّد الذي يعتبر محمّد عليّ باني مصر الحديثة
مع / التفسير "أ"

الطالب الثاني-سعيد:
موقف المؤرّخ المعارض لمحمّد عليّ الذي يراه حاكمًا مستبدًّا سعى من أجل تحقيق طموحاته الذاتيّة.
ضدّ/ التفسير "ب"

وصف الموضوعة/ المسألة/ المعضلة

محمّد عليّ باشا هو مؤسّس الأسرة العلويّة وحاكم مصر ما بين 1805 حتّى 1848، ولد في مدينة قولة في مقدونيا عام 1769. تعلّم في شبابه فنّ الفروسيّة وتقرّب من حاكم المدينة ودخل الجيش العثمانيّ. قدم إلى مصر عام 1801 مع قوّة عسكريّة عثمانيّة صغيرة وذلك لمحاربة الفرنسيّين بقيادة نابليون بونابرت، الذين احتلّوا مصر.

تسلّم في مصر أقوى فرقة عسكريّة وسعى جاهدًا للوصول إلى السلطة. ونجح في ذلك بفضل حنكته السياسيّة، بتأييده الشعب المصريّ ضدّ الوالي العثمانيّ، لأنّ الوالي فرض ضرائب جديدة على السكّان. وقد حصل على دعم زعماء الشعب (علماء ومشايخ الأزهر) حيث عيّن واليًا على مصر، وذلك بعد أن أقرّ السلطان العثمانيّ هذا التعيين عام 1805.

لا شكّ أنّ هنالك العديد من العوامل التي ساعدته على تثبيت حكمه، منها تجديد ولايته على مصر من السلطان عام 1806 وإفشال التدخّل العسكريّ الإنجليزيّ المباشر في مصر والقضاء على وجود المماليك بعد مذبحة القلعة التي دبّرها محمّد عليّ للمماليك، حيث جهّز حفلًا ضخمًا بمناسبة تولّي ابنه طوسون قيادة الجيش الخارج إلى الحجاز للقضاء على الوهّابيّين في الحجاز، وبعد دخولهم القلعة فتح الجنود عليهم وابلًا من الرصاص فقتل أغلبهم ومن نجا منهم من الرصاص قُتل على أيدي الجنود (كفافي، 1992: ص 161).

قاد محمّد عليّ باشا عدّة حملات عسكريّة، منها على الشّام، والتي تمثّلت بسلسلة معارك ضدّ الدولة العثمانيّة، حيث كان لها أثر كبير في زعزعة أركان السلطنة، وبالذات حين وصل جيش إبراهيم باشا إلى كوتاهية غرب الأناضول في طريقه إلى إسطنبول، مهدّدًا عرش الخليفة العثمانيّ قبل أن تتدخّل روسيا سياسيًّا وتحشد عسكريًّا لوقف تقدّمه (بازيلي، 1989: ص 134 – 137).

أثارت شخصيّة وأعمال محمّد عليّ في مصر جدلًا عميقًا بين المؤرّخين؛ فمنهم من يراه باني مصر الحديثة ومؤسّس نهضتها وباعث حضارتها، نظرًا للإصلاحات الجذريّة والمتعدّدة التي قام بها في مصر على مستوى الجيش والإدارة والاقتصاد والتعليم، وهناك من اعتبره شخصيّة مستبدّة سياسيًّا استغلّ إصلاحاته لتعزيز وتحقيق طموحاته الذاتيّة؛ إذ لم يكن المصريّون في نظره إلّا مجرّد أدوات لتحقيق طموحاته.

مع / التفسير "أ"

1-التعليل الأوّل: الكاتب هنري دوديل في كتابه محمّد عليّ مؤسّس مصر الحديثة.
اخترتُ موقف المؤرّخ المؤيّد لمحمّد علي باشا، استنادًا إلى موقفين؛ الموقف الأوّل وهو موقف دوديل، لأنّه يرى أنّ محمّد عليّ تسلم الحكم في ظروف صعبة عاشتها مصر، باعتبارها أسوأ ولاية عثمانيّة؛ إذ إنّ سيطرة المماليك أرهقت البلاد؛ فلم يفكّروا في حماية الفلّاح من أسلحة البدو الذين كانوا يهاجمونه، ومن تعسّف محصّلي الضرائب وسياطهم، ممّا دفع بالفلّاحين أن يتركوا أراضيهم بسبب ما تجمّع فيها من الوحل والطمي، بعد أن كانت أخصب أراضي العالم وقلّت خصوبتها بنحو الثلث تقريبًا. هذا بالإضافة إلى الضرائب التي كانت تنتزع من الفلّاح، والاختلاس من الإيراد العامّ، أمّا العدالة فكانت تحتاج إلى رشوة (دوديل، 1967: ص 38-36).
ونتيجة لأعمال وإصلاحات محمّد عليّ، طرأ تحسّن على وضع مصر الداخليّ؛ إذ إنّ استيلاءه على أراضي الملتزمين، ومسح الأراضي وتسجيلها باسم سكّان القرى، وتطوير الرّيّ وإدخال الآلات الزراعيّة حسّن وضع الفلّاحين، وقضى على طبقة الملتزمين. وقد فرض الأمن أيضًا على الطرقات من خلال محاربة اللصوص وقطّاع الطرق.

2-التعليل الثاني: عبد الرحمن الرافعيّ عصر محمّد عليّ باشا
أمّا الموقف الثّاني، فهو موقف عبد الرحمن الرافعيّ، والذي رأى محمّد عليّ باشا صاحب قوّة وعزيمة، حيث أنشأ من العدم جيشًا ضخمًا على أحدث النظم، وأسطولًا قويًّا رفع علم مصر فوق ظهر البحار، أوجد حكومة منتظمة حيث كانت الفوضى تعمّ البلاد. وأنشأ المدارس والمعاهد حيث كانت الجهالة فاشية، كما أنشأ المستشفيات حيث كانت الأمراض تفتك بالأهليّين، وشقّ الترع وبنى الجسور حيث كانت مياه النيل تذهب هدرًا دون أن تنتفع منها الأراضي، بالإضافة إلى إقامة المصانع المختلفة وإرسال البعثات الطلّابيّة التي كان لها أثر كبير في تطوير مصر (الرافعي، 1951: ص 599)

ضدّ/ التفسير "ب"

التعليل الأوّل: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للشيخ محمّد عبده، الجزء الأوّل.
لقد اخترتُ الموقف المعارض لمحمّد عليّ باشا، وذلك بعد الاطّلاع على موقفين رأى كلّ من صاحبيهما محمّد عليّ باشا حاكمًا مستبدًّا. الموقف الأوّل موقف الإمام محمّد عبده، والذي انتقد حكم محمّد عليّ المطلق، وقد حكى محمّد عبده عن هذا الأمر قائلًا: "إنّ واشيًا سعى عند الحكّام بحجّة أنّهم ممّن يحمل السلاح، فأخذوا جميعًا وزُجّوا بالسجن واحدًا بعد واحد، ومن دخل منهم السجن لم يخرج إلّا ميّتًا. فاعتبرهُ طاغية، ولعلّ ذلك يرجع إلى شخصيّة محمّد عليّ العسكريّة والذي انقلب على من ساعدوه، بل وانقلبَ على الأفكار العامّة التي تربّى عليها المصريّون من قبله".
وقال محمّد عبده إنّه اتّخذ محمّد عليّ من المحافظة على الأمن سبيلًا لجمع السلاح من الأهليّين، حتّى زالت ملكة الشجاعة منهم، ولم يُبقِ في البلاد رأسًا يعرف نفسه حتى خلعهُ من بدنه أو نفاه مع بعثة بلده إلى السودان فهلك هناك (عمارة، 1993: ص 96-97).
ومن هنا نلاحظ أنّ الإمام محمّد عبده يعتقد أن محمّد عليّ نجح في بناء نظام حكم استبداديّ فاسد في جوهره، دمّر الطبقة الاجتماعيّة التي زادت أسهم المصريّين الفعليّة وجعلت لهم قوّة ومكانة قبل وصوله للحكم، لكنّ سياسة محمّد عليّ أدّت إلى سحق فكرة تعدّد السلطة، حيث جعلها استبداديّة وخدمت طموحاته الذاتيّة.
التعليل الثاني: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلاميّة، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكيّ
سياسة الاحتكار: أمّا الموقف الثّاني الذي عزّز اعتبار محمّد عليّ باشا حاكمًا مستبدًّا، فهو موقف بروكلمان. فبحسب أقواله، نظر محمّد عليّ إلى البلاد نظرته إلى مُلك خاصّ. كان همّه الأوحد السعي إلى أن يجني منه أعظم محصول مستطاع، حيث سيطر على محاصيل القطن والكتّان، ليضيفها **بعد سنتين إلى محاصيل** النيل والسمسم والنباتات الزينيّة الأخرى. ولكنّ هذهِ الموادّ الغنيّة لم تستطع أن تشبع مطامعه (بروكلمان، 1974: ص 545).
ومن هنا، ساد الاحتكار الذي فرضه محمّد عليّ جميع إصلاحات محمّد عليّ، وبواسطتهِ حكم مصر حكمًا مطلقًا وسيطر على اقتصادها بالكامل.

نقاش مشترَك

مناقشة وتعبير عن موقف مشترك من الطالبين إياد وسعيد في كلّ مجموعة:

تختلف الآراء حول شخصيّة محمّد عليّ ودوره التاريخيّ في مصر، ما بين باني مصر الحديثة وكونه حاكمًا مستبدًّا سعى إلى تحقيق طموحاته الشخصيّة. بناءً على ما ذكر، توصّلنا نحن أعضاء المجموعة إلى ورقة موقف تدمج بين الرأيين على أساس أنّ محمّد عليّ اعتبر مصلحًا بارزًا، قاد حملة إصلاحات شاملة تهدف إلى تحديث مصر، ولتحقيق التقدّم أقام نظامًا تعليميًّا حديثًا وحسّن البنية التحتيّة، وأقام المشاريع الاقتصاديّة مما ساهم في رفع مستوى التعليم وتطوير الجيش المصريّ، والحصول على الاستقلاليّة العسكريّة، الأمر الذي زاد من أمن البلاد وقدرتها على التصدّي للتحدّيات الخارجيّة، ولكنّه استطاع أن يرسي نظام حكم وراثيًّا له ولعائلته، وأن يرسّخ نظام الاحتكار، وأصبحت البلاد عرضة للتدخّل الأوروبيّ في شؤونها الداخليّة من خلال معاهدات الامتيازات الأجنبيّة، كما وقضى على قوّة الطبقة البرجوازيّة الناشئة في مصر، التي كان بمقدورها التصدّي للاستعمار الأوروبيّ.

إذًا، ملخّص الموقف هو أنّ فهم دور محمّد عليّ باشا في مصر يتطلّب توازنًا وتقديرًا للجوانب المختلفة في الساحة المصريّة. قد يكون محمّد عليّ باشا حقّق بعض الإصلاحات والتحسينات، والتي كان لها دورها الإيجابيّ، ولكنّه استغلّ سلطته لمصلحته الشخصيّة.

لا شكّ أنّ ما أحدثه محمّد عليّ باشا في مصر يعكس العديد من القيم والصفات التي تميّزت بها هذه الشخصيّة، والتي شكّلت مسيرة حكمه، أهمّها –القيادة القويّة، حيث كان يتمتّع بشخصيّة قويّة وشجاعة وقدرة قياديّة، استخدم قوّته وتصميمه للسيطرة على البلاد وتحقيق أهدافه السياسيّة والشخصيّة.

المصادر / النصوص

بازيلي 1989، قسطنطين بازيلي. تاريخ سورية وفلسطين. موسكو: دار التقدّم. ص134- 137.

بروكلمان 1974، كارل بروكلمان. تاريخ الشّعوب الإسلاميّة. ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكيّ. عكّا: مكتبة السروجي. ص545

دوديل 1967، هنري دوديل. محمّد عليّ باشا مؤسّس مصر الحديثة. ترجمة: أحمد عبد الخالق بيك وعليّ أحمد شكري. ص38-36.

الرافعيّ 1951، عبد الرحمن الرافعيّ. عصر محمّد عليّ باشا. القاهرة: مكتبة النهضة المصريّة.

عمارة 1993، محمّد عمارة. الأعمال الكاملة للشيخ محمّد عبده. مصر: دار الشّروق. ص97-96.

كفافيّ 1992، حسين كفافيّ. محمّد عليّ باشا- رؤية لحادثة القلعة. مصر: الهيئة العامّة المصريّة للكتاب. ص 161